القسم الثالث

العرب

العَرَبُ: بالضم وبالتحريك خِلافُ العجم مؤنث، وهم سكان الأمصار أو عامٌ.

والأَعْرَابُ: منهم سكان البادية لا واحدة لها. ويجمع أَعَارِيب.

وعَرَبٌ عَارِبةٌ وعَرْباً وعَرِبَةً صُرحَاء.

ومُتَعَرِّبةً ومُسْتَعْرِبَةً: دخلاء.

وعَرَبِيٌّ: بَيِّنُ العُرُوبَةِ والعُرُوبِيَّةِ.

والعَرَبِيُّ: شعير أبيض، وسنبلة حرفان.

والإِعْرَابُ: الإِبَانَةِ والإِفصاحِ (عن الشيء)[1].

عَ رَ بَ ـ (العَرَبُ) جيل من الناس، والنسبة إليهم عَرَبِيٌّ، وهم أهل الأمصار.

والأَعْرابُ: فهم سكان البادية خاصة، والنسبة إليهم أعْرَابِي.

وليس الأَعْرابُ جمعاً لِعَرَبْ، بل هو إسم جنس.

والعَرَبُ العاربة: الخُلَّص منهم، أكّد من لفظه (كَلَيْلٍ لَائِلٍ) وربما قالوا (العْرَبُ العُرَبَاءُ).

وتَعَرَّبَ: تَشَبَّه بالعَرَب.

والعَرَبُ المُسْتَعْرِبة: بكسر الراء، الذين ليسوا بِخُلَّصْ، وكذا المُستَعَرِّبة: بكسر الرَّاء وتشديدها.

والعَرَبِيَّةُ: هي هذه اللغة.

---

(١) القاموس المحيط ـ الفيروزآبادي١/١٠٦ مادة «عرب».

والعَرَبُ والعُرْبُ: واحد كالعَجَمِ والعُجْمِ.

أَعْرَبَ بِحُجَّتِهِ: أفصح بها ولم يتق أحداً، وفي الحديث: الثَّيِّقُ تُعْرِبُ عن نفسها (أي تفصح)[1].

وجاء الإسلام، ونزل القرآن الكريم منجماً في ثلاث وعشرين سنة في مكة والمدينة، فلم يرد فيه من الجزرع ـ ر ـ ب إلّا ثلاث صيغ:

١ـ عُرُباً: جمع عَرُوبٍ (بفتح العين) نعتاً للمرأة المتحببة إلى زوجها ﴿عُرُباً أَتْرَاباً﴾[2].

٢ـ أَعْرابُ: وردت عشر مرات في سور مدنية فقط، منها ست مرات في سورة التوبة وحدها، ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد على أن كلمة (الإعْراب) تدل في القرآن وفي غير القرآن على البدو.

٣ـ أما الكلمة الفاصلة في هذا الشأن فهي كلمة «عَرَبِي» التي وردت في القرآن الكريم إحدى عشر مرة في سور مدنية وسور مكية أيضاً، غير أن هذه الكلمة وردت عشر مرات نصاً للغة التي نزل بها القرآن الكريم، بأنها لغة واضحة بينة من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ﴾[3] أي تفهمون. ويبدو أن هنالك مكاناً واحداً استعملت فيه الكلمة «عربي» لتنعت شخص الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأعجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾[4] أي أكتاب أعجمي اللغة ونبي عربي..؟

إن استعمال كلمة (عربي) في القرآن الكريم دلت الشعراء على التعبير الذي عجز عن النطق به أو تحديده السابقون أمثال (عنترة) ومنذ السنة الثالثة للهجرة قال

---

(٢) مختار الصحاح ـ الرازي ص٤٢٢، تهذيب الصحاح ـ الزنجاني ١/٧٥.

(٢) سورة الواقعة آية (٣٧).

(٣) سورة يوسف آية (٢).

(٤) سورة فصلت آية (٤٤).

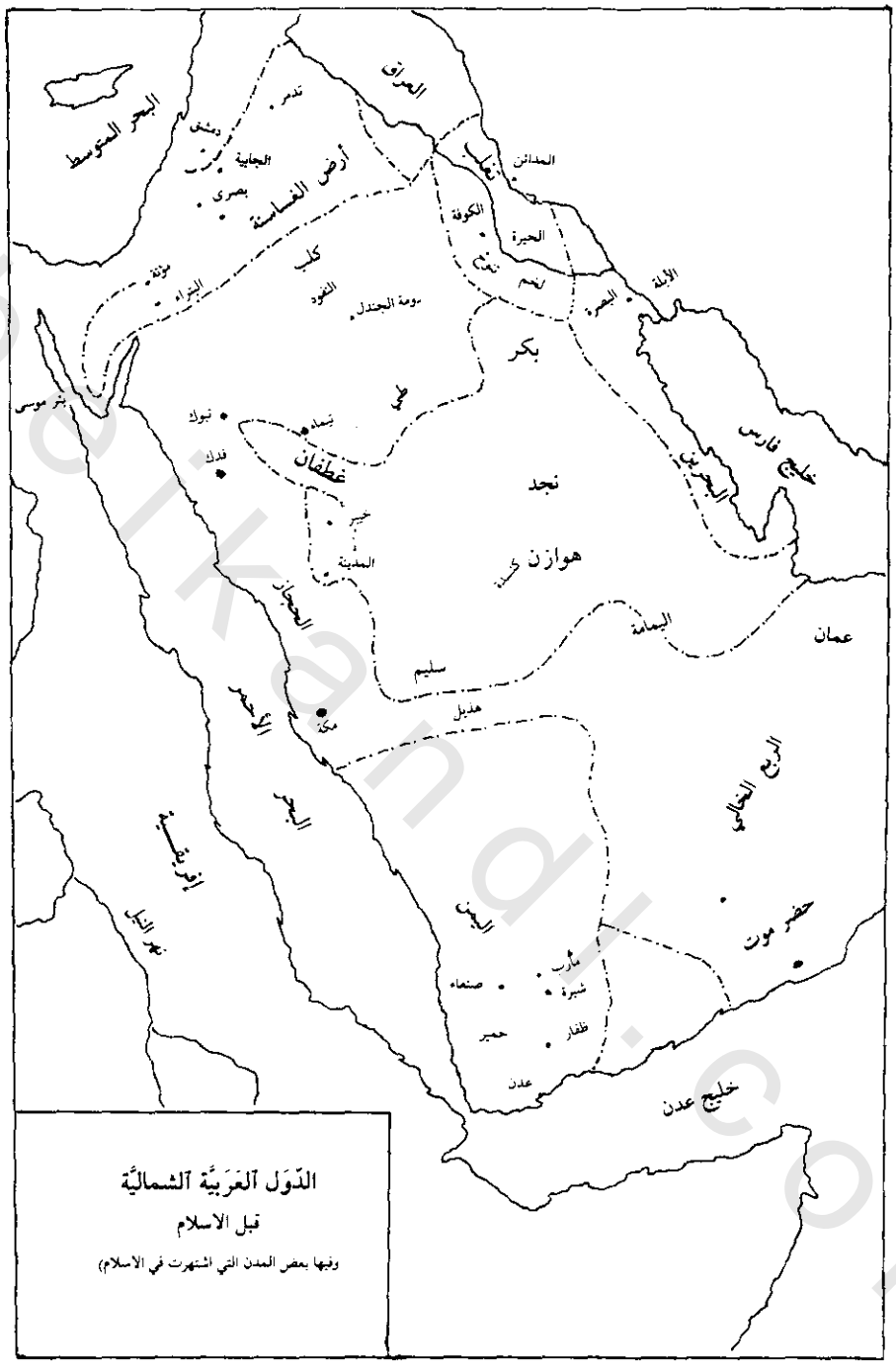

خريطة مأخوذة عن تاريخ العرب المطوّل لفيليب حتي ، عن كتاب ـ الحضارات ـ للبيب عبد الساتر

كعب بن مالك يذكر رسول الله ﷺ:

بدا لنـا فاتبعنـاه نصـدقـه وكـذبـوه، فكنـا أسعـد العـرب

وقال حسان بن ثابت يقرع بني هذيل عندما اشترطوا على الرسول أن يحل لهم الزنى عند دخولهم الإسلام:

سألت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما قالت ولم تصب

سألـوا رسولهم ما ليس معطيهم حتى الممات وكانوا سبة العرب[1]

إن أصـل كلمة (عرب) غير معروف بالتحديد، رغم التفاسير المختلفة التي يقدمها علماء اللغة (والفيلولوجيون). ويقول بعضهم، إن الكلمة مشتقة من أصل سامي معناه (الغرب) وأن سكان ما بين النهرين كانوا أول من أطلقها على الأقوام التي تسكن (غـرب) منطقة وادي الفرات، على أن هذا القول صعب الإثبات، وتقدم حجج كثيرة ضده، أهمها الاعتراض الذي قد يثار من أنه ليس معقولاً أن يسمى شعب نفسه باسم مشتق من موقعه بالنسبة لشعب آخر، ولعل محاولات ربط أصل الكلمة بقضية حياة البداوة التي هي من صفات هذا الشعب في تاريخه السحيق أجدى وأقرب إلى الواقعية.

وإن كلمة «عرب» في رأي فريق من العلماء ذات صلة بكلمة ARABHA «عرابا» العبرية التي تعني «الأرض المظلمة» أو «السهوب» أو بكلمة EREBH «عريب» التي يحياها السكان الحضريون، هذه الحياة التي يرفضها البدو ويحتقرونها، أو من كلمة ABHAR «عابر» وتعني بالعبرية «تحرك» أو «عبر» ومنها اشتق اسم اللغة العبرية.

إن الربط بين كلمة (عرب) وحياة البداوة والتنقل أمر ليس بالبعيد الاحتمال،

---

(١) تاريخ الجاهلية ـ فروخ ص٤٢.

لأن العرب أنفسهم ـ بما في ذلك القرآن الكريم ـ قد استعملوا كلمة أعراب للدلالة على البدو الذين تعتمد حياتهم على النجعة والانتقال وبعكس سكان المدن في الجزيرة الذين كانوا مستقرين ويمارسون الزراعة والتجارة وغيرها من أعمال الحضر. ومن هنا جاء التفريق بين عرب وأعراب، إذ يقول القرآن الكريم: ﴿**الأعرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً**﴾[1]. والأعراب هنا تستعمل بمعنى البدو حسبما جاؤوا في كل التعابير[2].

١ ـ مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام:

١ـ الكتب العربية: أقدم المصادر العربية المعروفة المدونة من تاريخ العرب وأصحها القرآن الكريم. فقد جاء فيه ذكر بعض القبائل البائدة كعاد وثمود، وبعض أخبار ملوك اليمن كسيل العرم وغيره. وإذا قرأت تلك الأخبار فيه لا تجد فيها شيئاً من المبالغات التي وصلت إلينا في كتب التاريخ بل تجد ما ذكره القرآن الكريم صحيحاً تؤيده الاكتشافات الحديثة، والبحوث العلمية الدقيقة ويدلك ذلك على أن تلك المبالغات أو الخرافات أدخلها أهل الأغراض أو الطامعون ممن دخل الإسلام من اليهود والمجوس أو غيرهم. لأن العرب كانوا يستفتونهم في تفسير ما أغمض عليهم فيفتونهم بما تعودوه في كتبهم من المبالغة في فخامة الأجسام وطول الأعمار، فلما ذكر القرآن الكريم عاداً يقول الله تعالى: ﴿**أَلَم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إرَمَ ذَاتِ العِمَادِ. الَّتِي لَم يُخْلَقُ مِثْلُهَا في البِلَادِ**﴾[3]. فأدخل المفسرون في شرحها وتفسيرها مبالغات رواها بعض من هؤلاء الذين أسلموا ظاهراً وبقوا على عقائدهم في السر[4].

وقلد المؤرخون العرب اليهود وغيرهم في كثير من طرق التدوين، فاقتبسوا منهم

---

(١) سورة التوبة آية (٩٧).

(٢) تاريخ العرب القديم ـ عاقل ص٤٧.

(٣) سورة الفجر آية (٦ـ٨).

(٤) العرب قبل الإسلام ـ زيدان ص١٧ عن تاريخ التمدن الإسلامي ج٣.

رد كل أمة إلى أب من آباء التوراة حتى المغول والترك والفرس فردوا لأب الفرس مثلاً إلى فارس بن تاسور بن سام، وقالوا عن أهل الصين أنهم من ولد عابور بن يتوبل بن يافت بن نوح[1].

وقس على ذلك بقليل من أسماء البلاد وردها إلى أسماء مؤسسيها، فمثلاً «مصر» ابناها «مصرايم» و«آشور» بناها «آشور»، وقد ينسبون بناء البلد إلى حادثة أو ظرف فعندهم مثلاً أن «دمشق» سميت كذلك لأنهم «دمشقوا» بناءها، ويثرب من قولهم «لا تثريب»، و«الحيرة» من «تحير» والعراق من عرق القرية وهكذا. والواقع أن الأندلس محرفة من «وندلوسا» نسبة إلى «الوندال» قوم سكنوا الأندلس قبل الإلام ويثرب محرفة من «أتربيس» اسم بعض بلاد مصر، والحيرة «حيرتا» في السريانية أي «المعسكر» و«يعرب» لمن تكلم العربية. وهكذا[2].

٢ ـ مصادر أخبار العرب:

أ ـ أشعار العرب وأمثالهم وأقوال كانت شائعة بين العرب في صدر الإسلام يتناقلونها نظماً أو نثراً، ويدخل فيها أخبار البدو وأيام العرب، وحروبهم ووقائعهم وعاداتهم وأخلاقهم فدونوها في جملة ما دونوه نقلاً عن الرواة كالأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما وقد ضاع أكثر ما دونوه.

ب ـ الآثار الحميرية: لأنهم كانوا في صدر الإسلام يقرأون الخط المسند، وكان في اليمن جملة من العلماء عندهم العلم والحكمة، وأخذوا عنهم، وعن الآثار تاريخ اليمن وأخبار السد وغيره، وأقدم من دوّن ذلك محمد بن إسحاق في السيرة النبوية.

ج ـ أخبار اليهود في الحجاز واليمن وغيرهما.

---

(١) سفر التكوين الإصحاح التاسع ص١٠٤ أبناء نوح عليه السلام ـ المسعودي ١/٥٥.

(٢) العرب قبل الإسلام ـ زيدان ص١٨.

د ـ كنائس النصارى في العراق، فقد كان في الحيرة لما ظهر الإسلام كتب في السريانية والفارسية واليونانية اقتبس المسلمون منها كثيراً.

تم نقل هذه الأخبار دون تمحيص في بداية التدوين، ثم لما اكتمل للعرب نضج تمدنهم قام غير واحد من المؤرخين النقاد كابن الأثير «ياقوت»، وابن خلدون وغيرهم فانتقدوا كثيراً مما ورد عن تاريخ العرب[1].

يضاف إلى ذلك ما ورد عن أخبار العرب في التوراة والمؤرخين الرومان واليونان من (هيرودوتس) ٤٨٠ـ٤٢٥ق. م وحتى (استيفانوس) البيزنيطي ٥٦٧م أي ما يقارب الألف عام، ثم المصادر المنقوشة على الآثار في بلاد الغرب مثل الخط المسماري والاسفيني والخط النبطي ويعتقد المؤرخون بأن حضارة العرب لا تقل بحال عن حضارة مصر وبابل، ولكن الرمال طمرتها ودثرت وإذا هيء لمن يكتشفها فإنها ستغير كثيراً من المفاهيم التي سادت عن تاريخ هؤلاء العرب وكذلك آثار اليمن وحضرموت والحجاز والحيرة وغير ذلك مما تمكن كشفه والاطلاع عليه ودراسته وخاصة الأنباط، وفترة حكم اليونان والرومان من بعدهم. ومن المصادر المنقوشة خارج جزيرة العرب في العراق ومصر وفنيقية، وقد ظهر بها الكثير من الحديث عن آثار العرب، وفترة حكم العمالقة على مصر وهم من العرب واكتساح المصريين والآشوريين لبلاد العرب[2].

إذا قلنا (العرب اليوم أفردنا سكان جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والسودان والمغرب) أما قبل الإسلام فكان يراد بالعرب ـ سكان جزيرة العرب فقط ـ[3] باعتبار

---

(١) العرب قبل الإسلام ـ زيدان ص١٩ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ص٢٥ فما بعد: وقد أورد المؤلف سرداً للكتب العربية والأجنبية التي اعتمد عليها في تأليف كتابه المذكور (العرب قبل الإسلام). وكذلك التاريخ العربي ومصادره ـ أمين المغربي ٢/ ١١٣ـ١١٦.

(٣) المصدر السابق ص٤١.

أن العرب الذين سكنوا العراق والشام قد خالطهم شعوب أخرى مثل السريان والكلدان والأنباط واليهود، وهم من الشعوب السامية إضافة إلى الأقباط والبربر واليونان والرومان والوندال من الشعوب الآرية وسكان النوبة من الشعوب الأفريقية.

فلما ظهر الإسلام بين العرب الخلص في الحجاز توطنوا هذه البلاد وغيرها، وغلب لسانهم ودينهم على ألسنة أهلها فسموا عرباً.

في التاريخ القديم ـ على عهد الفراعنة والآشوريين والفنيقيين، فكانوا يريدون بالعرب أهل البادية في القسم الشمالي من جزيرة العرب، وشرقي وادي النيل، وفي البقعة الممتدة بين الفرات في الشرق والنيل في الغرب (هيرودوتس ١١٢)، يدخل فيها بادية الشام والعراق وشبه جزيرة سيناء، وما يتصل بها من شرق الدلتا، والبادية الشرقية بمصر بين النيل والبحر الأحمر.

وكان وادي النيل هو الفاصل الطبيعي بين ليبيا في الغرب وبلاد العرب في الشرق. وكان المصريون يسمون الجبل الشرقي الذي يحد النيل في الشرق جبل العرب، أو بلاد العرب ويسمون الجبل الغربي جبل ليبيا.

ولفظ «عرب» في التاريخ القديم كان يرادف لفظ (بدو) أو (بادية) في هذه الأيام وهو معنى هذا اللفظ في اللغات السامية، والأعراب سكان البادية خاصة ولا مفرد لها على أن العرب كانوا يسمون جزيرتهم (عربة)[1].

ولما تحضر بعض قبائل العرب قديماً وأقاموا في مدن اليمن والحجاز وحوران وغيرها لم يعد لفظ العرب محصوراً في (البدو) فتنوع معناه كما تنوع مسماه، فاضطروا إلى كلمات تميز بين الحالتين فاستعملوا لفظ (الحضر) لأهل المدن و(البدو) لأهل البادية ولم يبق للفظ العرب من معنى البداوة الآن إلّا في مثل قولهم (أعرابي).

(١) معجم البلدان ـ الحموي ٣/٦٣٣.

وكـان السبـأيون (دولة سبأ) إلى تاريخ الميلاد إذا ذكروا بعض قبائل الحضر وبدوها قالوا: «القبيلة الفلانية وأعرابها». وكان أولئك العرب أو البدو سكان تلك البادية في شمال جزيرة العرب يقسمون إلى قبائل وبطون وعشائر، كما كان حالهم قبل الإسلام وبعده[1].

٢ ـ تاريخ العرب:

اصـطلح مؤرخـو العرب أن يقسموا تاريخ العرب قبل الإسلام إلى قسمين: العرب البائدة والعرب الباقية.

ويريدون بالبائدة القبائل القديمة التي بادت قبل الإسلام. والباقية عندهم قسمان:

١ـ العرب القحطانية: من حمير ونحوها من أهل اليمن وفروعها.

٢ـ العرب العدنانية: في الحجاز وما يليها، واختلفت أقطار الباحثين في ذلك اختلافاً كثيراً.

وقد تبين لنا بدرس أحوال العرب وتاريخهم من أقدم أزمانهم إلى ظهور الإسلام أنهم سروا بثلاثة أدوار كبرى، كانت السيادة في الدور الأول أو القديم لقبائل القسم الشمالي من جزيرة العرب، وأكثر من العرب البائدة.

وفي الدور الثاني أو المتوسط كانت السيادة فيه لعرب القسم الجنوبي وأكثرهم من القحـطان، والـدور الثالث أو الأخير عادت السيادة فيه إلى الشمال، وينتهي بظهور الإسلام وأكثر قبائله من العدنانية. فنقسم هذا التاريخ إلى ثلاث طبقات:

١ـ العرب البائدة أو عرب الشمال ومنها عاد وثمود وطسم وجديس وغيرهم.

---

(١) العرب قبل الإسلام ـ زيدان ص٤١، ٤٢. العرب ـ ادوار عطية ١ـ٣، تاريخ العرب القديم ـ عاقل ص٣٣.

٢ـ القحطانية أو دول الجنوب ومنها سبأ وحمير ومن تفرع عنهم بعد خراب سد مأرب[١].

٣ـ العدنانية أو عرب الشمال في الطور الثاني وهم قريش وحلفائها، وقبلهم الأنباط وغيرهم جميع العرب يرجعون إلى ولد ثلاثة رجال وهم: عدنان، وقحطان، وقضاعة، فعدنان من ولد إسماعيل بلا شك في ذلك إلاّ أن تسمية الآباء بينه وبين إسماعيل قد جهلت جملة وتكلم في ذلك قوم بما لا يصح ـ فلا نتعرض لذكر ما لا يقين فيه ـ وأما كل من تناسل من ولد إسماعيل عليه السلام فقد غيروا ودثروا، ولا يعرف أحد منهم على آديم الأرض أصلاً ـ حاشا ما ذكرنا من أن من بني عدنان من ولده فقط[٢].

روى عن النبي ﷺ أنه إذا انتسب إلى معد بن عدنان أمسك، ثم يقول: كذب النسابون. وقرأ ﷺ: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾[٣].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لأنتسب إلى معد بن عدنان، وما بعد لا أدري ما هو؟[٤].

وروى عن ابن مسعود أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بلغ النسب إلى معد بن عدنان ويعرب بن قحطان كف عمّا فوق ذلك ولم ينسب.

وروى عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب مثله.

وعن سليمان بن أبي خيثمة قال: ما وجدنا في علم عالم، ولا شعر شاعر أحداً يعرف معد بن عدنان، ويعرب بن قحطان.

---

(١) العرب قبل الإسلام ـ زيدان ص٤٨ تاريخ العرب قبل الإسلام ـ عاقل ص٣٧ فما بعد.

(٢) جمهرة الأنساب ـ ابن حزم ص٧.

(٣) سورة الفرقان آية (٣٨).

(٤) الروض الآنف ـ السهيلي ١/ ١١.

وعن أبي لهيعة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كذب النسابون، ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان ويعرب بن قحطان إلا تخرص.

وكان ابن مسعود إذا قرأ: ﴿كَدَأْبِ عَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾[1] قال: كذب النسابون. قال: ولقي الحسن بن علي (رعفل) النسابة فقال له: أنت الذي تنسب الناس إلى آدم فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾[2]؟

وأما قحطان فمختلف فيه من ولـد من هو؟ فقوم قالوا: هو من ولد إسماعيل عليه السلام وهذا باطل ولا شك. إذ لو كان من ولد إسماعيل لما خص رسول الله ﷺ بني العنبر بن عمرو بن تميم بن مر بن طانجة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بأن تعتق منه عائشة، وإذ كان عليها نذر عتق رقبة من بني إسماعيل، فآباؤه بلا شك من ولد إسماعيل فلم يبق إلا قحطان وقضاعة.

وقد قيل أن قحطان من ولد سام بن نوح، والله أعلم، وقيل: من ولد هود عليه السلام وهذا باطل أيضاً بيقين قول الله تعالى: ﴿إِلَى عَادٍ أَخَاهم هُوداً﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهلِكُوا بريحٍ صَرصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرها عليهم سَبعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى القَومَ فِيهَا صَرعَى كَأَنَّهُم أَعجَازُ نَخلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَل تَرَى لهم مِن بَاقِيَةٍ﴾[4]. وهود عليه السلام من عاد ولا ترى باقية لعاد.

والذي في التوراة[5] من أنه قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام[6]. فقد بينا في كتابنا الموسوم بـ (المفصل) يقين فساد نقل التوراة

(١) سورة غافر آية (٣١).

(٢) سورة الفرقان آية (٣٨)، الأنساب ـ الصحاري ١/ ١٣٠-١٣١.

(٣) سورة الأعراف آية ٦٤.

(٤) سورة الحاقة آية (٥-٧).

(٥) سفر التكوين الإصحاح العاشر ص ١٦-١٧.

(٦) أصل العرب القحطانية، وأبو بطون حمير وكهلان، والتبابعة (ملوك اليمن) واللخميين (ملوك

عند ذكرنا ما فيها من الكذب الظاهر الذي لا مخرج منه وأنها مصنوعة مولدة. ليست الذي أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام.

أما قضاعة فمختلف فيه فقوم يقولون هو قضاعة بن معد بن عدنان، وقوم يقولون هو قضاعة بن مالك بن حمير والله أعلم.

ووجدنا في كتب بطليموس، وفي كتب العجم القديمة ذكر القضاعيين، ونبذة من أخبارهم وحروبهم فالله أعلم هل هم أوائل قضاعة هذه وأسلافهم، أم هم غيرهم.

وبلاد قضاعة متصلة بالشام، وببلاد اليونان والأمم التي بادت ممالكها فغلبت الروم عليها وبلاد بني عدنان ولا تتصل ببلاد اليمن أصلاً.

إلّا أن الذي يقطع به ويثبت ويحقق ويوقن، فهو أنه ليس على ظهر الأرض أحد يصل نسبه بصلة قاطعة، ونَقْل ثابت إلى إسماعيل، ولا إلى إسحاق عليهما السلام، نعني ابني إبراهيم ـ عليه السلام ـ. فكيف إلى نوح..؟ فكيف إلى آدم..؟ عليهما السلام، هذا لا مرية فيه[1].

وأما الذين يسمونهم العرب والنسابون «العرب العاربة» كجرهم، وقطورا، وجم، وجديس، وعاد، وثمود، وأميم (بن لاوزين بن سام بن نوح) وارم وغيرهم فقد بادوا، فليس على أديم الأرض أحد يصح أنه منهم إلّا أن يدعي قوم ما لا يثبت وكذلك سائر ولد إبراهيم ﷺ كمدين بن إبراهيم وسائر إخوته، وكذلك بني عمون،

= الحيرة) والغساسنة (ملوك الشام) في الجاهلية، وكذلك الأوس والخزرج سكان المدينة من العرب. ويعده أهل الأنساب أول رجال الجيل الثاني من أجيال العرب الثلاثة العاربة والمتعربة والمستعربة.

(١) جمهرة أنساب العرب ـ ابن حزم ١/٨.

ابني ابنة لوط الصغرى واسم ذلك الولد (بن عمى)[1] المنسوبون إلى لوط عليه السلام[2].

واختلف النسابون في النسب بين عدنان وإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فأما نسب إبراهيم إلى آدم صلوات الله عليهما مذكور فيها نسبهم، ومبلغ أعمارهم في الانتهاء في النسب إلى عدنان وقحطان، وما وراء ذلك فأسماء أخذت، وقال بعض العلماء بالأنساب إلى ما فوق قحطان وعدنان طلب غاية قصوى[3].

وفي حديث عن الحضارة العربية قبل الإسلام يقول المؤلف:

بأن بلاد العرب قطر صحراوي فسيح تبلغ مساحته حوالي ثلاثة ملايين كيلو متر مربع، وهي شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من آسيا يحدها الخليج العربي وبحر عُمان من الشرق والمحيط الهندي من الجنوب والبحر الأحمر من الغرب، وبادية الشام وبلاد الرافدين من الشمال وهي بهذا الموقع تحتل مركزاً غاية في الأهمية بالنسبة للمواصلات والمبادلات التجارية بين عالم حوض البحر المتوسط وعالم المحيط الهندي.

ويعتبر العرب الممثلون الرئيسيون لما دعاه علماء الأجناس «الجنس الشرقي» إنسان الشرق القديم المرفوع القامة، والهزيل البنية، الأسمر البشرة والأسود الشعر. وقد توزع أبناء الجنس الشرقي هذا في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، وأصابوا درجة معينة من التقدم الحضاري، وتكاثروا، ولم تعد واردات الجزيرة العربية المحدودة كافية لإعالة أعدادهم المتزايدة، وعلى الأثر أخذت جماعات منهم تنزح على شكل موجات بشرية متلاحقة إلى الأقاليم المجاورة حيث تيسرت موارد العيش في الأحواض النهرية وعند السواحل البحرية، من هذه الموجات كان الأكاديون

---

(١) سفر التكوين ١٩ : ٢٨.

(٢) جمهرة أنساب العرب ـ ابن حزم ١/ ٨. (٣) الأنساب ـ مسلمة الصحارى ١/ ١٣١.

والبابليون، والكلدانيون والآراميون والكنعانيون، كما نزحت فئات منهم إلى وادي النيل، وتشكل من امتزاجها مع العناصر الأفريقية الشعب المصري[1].

من هذه الدراسة السريعة نكون قد وجهنا النظر تقريباً إلى العرب الذين سبقوا ظهور الإسلام والفترة التي مر بها العرب والمعنية بدراستنا وهي «فترة الجاهلية» التي أصبحت هذه التسمية السمة الغالبة عليها، وهي المصطلح الذي سبق ظهور الإسلام بحوالي ثلاثة قرون تقريباً. وللمؤرخين في دراسة هذا العصر آراء ومذاهب واتجاهات كثيرة حول التسمية، وحول الصفات الغالبة على السكان، سواء في معاشهم أو حياتهم أو حروبهم أو تجمعاتهم.

وبعض المؤرخين لا يبتعدون كثيراً لتحديد ما عرف بالعصر الجاهلي عن مئة وخمسين عاماً قبل ظهور الإسلام، وما سبق ذلك يطلقون عليه اسم الجاهلية الأولى، وهي الفترة التي سادت جزيرة العرب قاطبة. وينبغي أن نعرف أن كلمة الجاهلية التي أطلقت على هذا العصر. ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه[2] وإنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق، وهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله جلّ وعز، وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم.

---

(١) الحضارة العربية ـ لبيب عبدالساتر ص٢٢٦.

لقد خلط المؤلف بين العرب كقوم منفصلين من سلالتي عدنان وقحطان وبين الشعوب السامية التي تتحدر من سلالة سام بن نوح والتي هاجرت من الجزيرة العربية، إذ أن العديد من علماء التاريخ يعتبرون الجزيرة العربية مهد هذه الشعوب السامية والعرب من هذه الشعوب وقد جمع العرب صفاتها والباقي منها، وكذلك اللغة العربية واللغات السامية وهي التي حافظت على خصائص تلك اللغات وهي اللغة الحية الباقية منها حيث نزل بها القرآن الكريم فحفظها ودعمها وخلدها.

(٢) مادة جهل القاموس المحيط ـ الفيروزابادي ٣/٣٦٤.

ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحمية والطيش والغضب قال تعالى: ﴿**خُذِ العَفوَ وأمُر بالعُرفِ وأعرِض عَن الجاهِلين**﴾[1]. وقال: ﴿**قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعوذُ باللهِ أن أكونَ مِنَ الجَاهِلينَ**﴾[2]. وقال: ﴿**وَعِبَاد الرَّحمنِ الَّذينَ يَمْشُونَ عَلى الأرضِ هَوناً وإذا خاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً**﴾[3]. وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر وقد عير رجلاً بأمه: «انك امرؤ فيك جاهلية».

وفي معلقة عمرو بن كلثوم الثعلبي:

ألا لا يجـهـلن أحـد علينـا فنجهـل فوق جهـل الجـاهلينـا

وواضح من النصوص جميعاً أن الكلمة استخدمت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحمق، وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرمه الدين الحنيف من موبقات[4].

٣ ـ القبائل العربية البدوية:

١ـ طبقات القبائل: هذه النظرة الخاصة بتعريف القبيلة هي التي حملت أهل الأنساب والأخبار على إطلاق لفظ القبيلة على الحضر (سكان المدن والواحات) إضافة إلى البدو (سكان الخيام والمترحلون). مع أن الحضر استقروا وأقاموا، فقريش عندهم قبيلة والأوس والخزرج قبيلة، وثقيف قبيلة[5].

---

(١) سورة الأعراف آية (١٩٩).

(٢) سورة البقرة آية (٦٧). (٣) سورة الفرقان آية (٦٣).

(٤) تاريخ الأدب العربي ـ ضيف ص٣٩. (٥) جواد علي ـ تاريخ ٤/٣١٣.

ولكل قبيلة جد تنتمي إليه، وتفاخر وتتباهى به، وقد يكون هذا الجد حقيقياً أي إنسان، عاش ومات وساد القبيلة وترك أثراً كبيراً في قبيلته حتى نسبت إليه، وقد يكون الجد اسم حلف تكون وتألف من قبائل عديدة حتى عرفت به، ودعيت بذلك الحلف، وصار وكأنه جد وإنسان غاش. ومن هذا القبيل اسم (تنوخ) على حد زعم أهل الأخبار. فقد رووا أن (تنوخ) قبائل عديدة اجتمعت وتحالفت وأقامت في مواضعها. وقد يكون اسم موضع، أقامت قبيلة به فنسب إليه، كما يذكر أهل الأخبار عن اسم «غسان». وقد يكون اسم إله عُبِدَ فنُسِبَ إليه عباده مثل بنو (سعد العشيرة) و(تالب ريام) جد قبيلة همدان وقد يكون اسم نبات أو حيوان وما شابه ذلك[1].

٢ـ مراتب القبائل: رتب علماء الأنساب قبائل العرب على مراتب هي:

شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة، ثم بطن، ثم فخذ، ثم فصيلة.

فالشعب: النسب الأبعد مثل عدنان، قحطان.

والقبيلة: مثل ربيعة ومضر.

والعمارة: مثل قريش وكنانة.

والبطن: مثل عبد مناف، وبني مخزوم، وبني هاشم، وبني أمية.

والفصيلة: مثل بني أبي طالب، وبني العباس[2].

وجعل ابن الكلبي مرتبة بين الفخذ والفصيلة وهي مرتبة العشيرة وهي رهط الرجل[3].

وبنى النويري طبقات القبائل على عشر طبقات وهي:

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٣٤٠.

(٢) بلوغ الأرب ٣/ ١٨٧ فما بعد، لسان العرب ١٤/ ٧٥ ـ البطن دون القبيلة، وقيل هو دون الفخذ وفوق العمارة، اللسان ١٦/ ١٩٩، الإكليل ١/ ٢٢.

(٣) العقد الفريد ٣/ ٢٨٣ فما بعد.

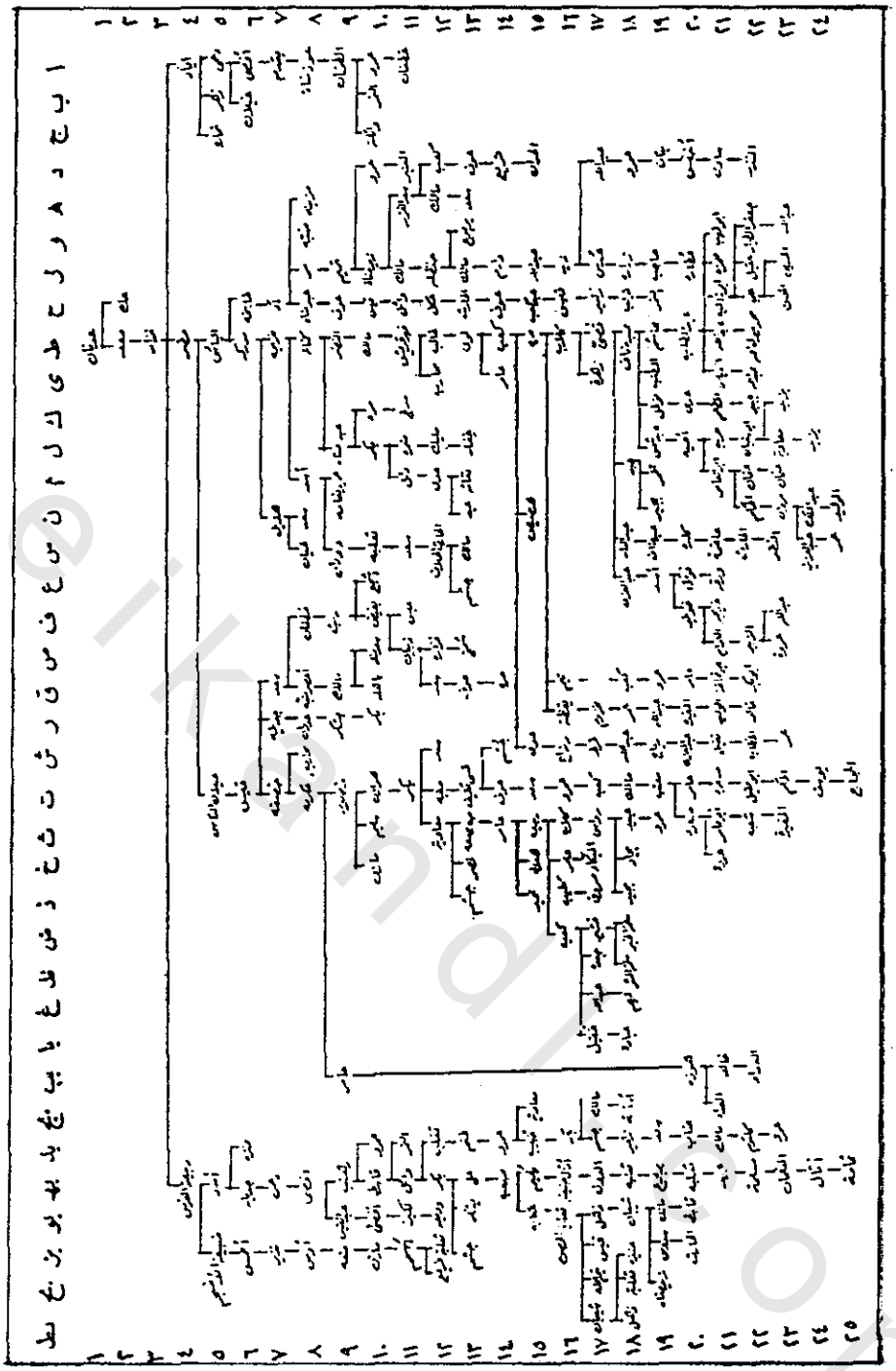

ملاحظة: الأرقام تدل على الطبقة في المحور العامودي، والحروف الأبجدية في المحور الأفقي تدل على العمود في شجرة الأنساب العدنانية نقلاً عن كتاب: «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة الملحقة في آخر الكتاب لجامعها الدكتور محمد حميد الله».

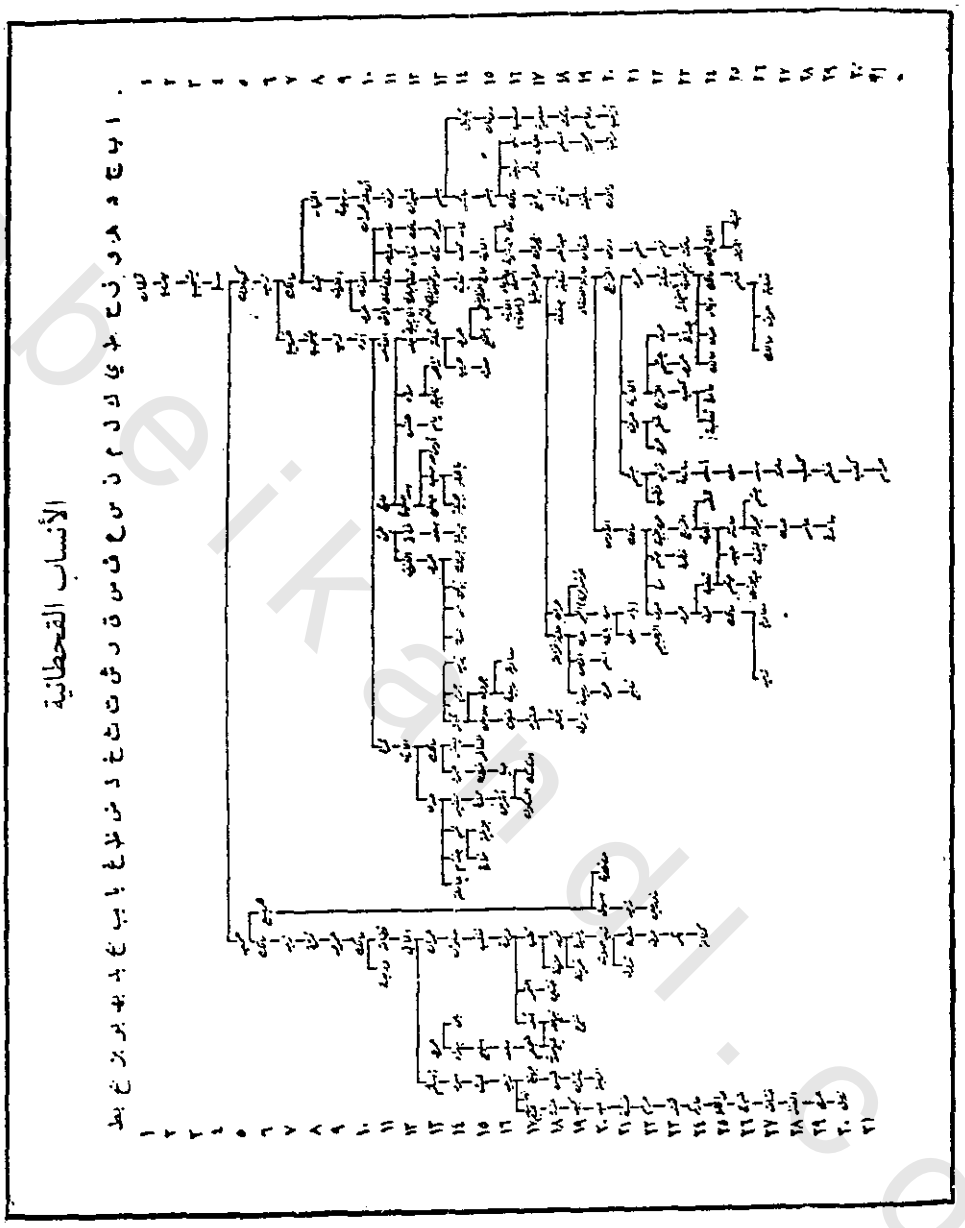

ملاحظة: الأرقام تدل على الطبقة في المحور العامودي، والحروف الأبجدية في المحور الأفقي تدل على العمود في شجرة الأنساب القحطانية نقلاً عن كتاب: «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة الملحقة في آخر الكتاب لجامعها الدكتور محمد حميد الله».

الجذم، والجماهير، الشعوب، القبائل، العمائر، البطون، الأفخاذ، العشائر، الفصائل، الأرهاط[1].

ورتب (نشوان بن سعيد الحميري) القبائل على هذا النحو:

الشعب، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الجيل، ثم الفصيلة. وجعل مضر مثال للشعب، و«كنانة» مثال القبيلة، و«قريشاً» مثال العمارة، و«فهراً» مثال البطن، و«قصياً» مثال الفخذ، و«هاشماً» للجيل، و«آل العباس» للفصيلة[2].

وأكثر علماء النسب يقدمون الشعب على القبيلة، والظاهر أن الفكرة كانت قد اختمرت في رؤوس الجاهليين الذين عاشوا في الجاهلية القريبة من الإسلام حتى ظهرت عندهم الفكرة القومية بمعنى واسع، وحيث نجد عندهم ظهور الكلمات التي تشير إلى هذا المعنى، قبل إطلاقهم العرب على العرب جميعاً اصطلاحاً، وحيث أخذ الحمى القومي يظهر بين القبائل بوجوب التكتل لمكافحة «الغرباء» كالذي حدث في معارك اليمن مع الجيش «الأحباش» وفي معارك عرب العراق مع «الفرس».

وقد قدّم القرآن الكريم الشعوب على القبائل: ﴿**وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُم عندَ اللهِ أتقَاكُم**﴾[3].

فالشعوب هنا فوق القبائل، وتعبر عن هذا المعنى الواسع الذي أتحدث عنه.

وزاد بعض العلماء (الجذم) بأن وضعوها قبل الشعب، ووضعوا الفصيلة «بعد

---

(١) نهاية الأرب ٢/٢٦٢ فما بعد.

(٢) المنتخبات ص٥٥ حاشية جواد علي ـ تاريخ ١/٥٠٩ فما بعد.

(٣) سورة الحجرات آية (١٣).

العشيرة» ومنهم من زاد بعد العشيرة «الأسرة» ثم «العترة» ورتبها آخرون على هذه الصورة:

الجذم، ثم الجمهور، ثم الشعب، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم العشيرة، ثم الفصيلة، ثم الرهط، ثم الأسرة، ثم العترة، ثم الذرية.

وزاد غيرهم في أثنائها ثلاثة هي: «البيت، الحي، والجماع».

والاختلاف الذي نراه من علماء النسب هو في الترتيب أي من حيث التقدير والتفاخر وفي إضافة بعض المصطلحات، أو في نقصها. أما من حيث العموم فإننا نجدهم يتفقون في الغالب، ولا يختلفون أبداً في أن القبائل والأنساب كانت على منازل ودرجات ولا بد أن تكون أكثر هذه المصطلحات مصطلحات أهل الجاهلية القريبين والإسلام. أما بالنسبة للجاهليين البعيدين عنه فلن يكون حكمنا عليهم علمياً ـ إلّا إذا أخذنا بمصطلحاتهم من كتاباتهم.

والقبيلة الجماعة التي تنتمي إلى نسب واحد، ويرجع ذلك النسب إلى جد أعلى أو إلى جدة، وهو في الأقل، ولا تزال اللفظة حية مستعملة يستعملها العرب في كل مكان في المعنى الاصطلاحي المستعمل عند النسابين.

والقبيلة هي المجتمع الأكبر بالنسبة لأهل البادية فليس فوقها مجتمع آخر[1].

هذا بالنسبة للأحرار من العرب أو المجتمعين بتجمع واحد ينتسبون إلى جد واحد، يحفظون أنسابهم ويتفاخرون به، ويعرفون ارتباطهم بسواهم وهم «العرب الصرحاء».

إلّا أن المجتمع العربي لم يكن خالصاً من الصرحاء فقط بل كان به بعض التداخل من موالي وعبيد ولقطاء إلخ ما هنالك.

---

(١) جواد علي ـ تاريخ ١/٥٠٩ فما بعد.

والمـوالي: جمـع مولى (والولي) القرب، والدنو، والمطر بعد المطر، وُليتُ الأرض بالضم.

ولي: الاسم منه والمحب والصديق والنصير، وولي الشيء وعليه ولاية وولاية وهي المصدر وبالكسر الخطة والإمارة والسلطان، وأوليته الأمر: وليته إياه والولاء: الملك، والمولى: المالك والعبد والمعتق والصاحب والقريب، كابن العم ونحوه والجار والحليف، والابن، والعم، والنزيل، والشريك، وابن الأخت، والولي والرب والناصر، والمنعم، والمنعم علي. والمحب، والتابع، والصمد.

وفيه مولوية: أي يشبه الموالي، وهو متيمولى: يتشبه بالسادة، وتولاه: اتخذه ولياً[1]، وأما مولى العقد ويقال له مولى الحلف ومولى اصطناع فيكون بانتماء رجل إلى رجل آخر بعقـد أو قبيلة إلى قبيلة أخرى بحلف، وذلك أن يتعاقد ضعيف مع قوي، على أن يساعده ويعاضده ويقوم في مقابل ذلك بأداء ما اتفق عليه من شروط، وينتسب المولى عندئذ إلى سيده أي مولاه الذي قبل ولاءه.

من هذا القبيل يهود يثرب، فقد كانوا في ولاية الأوس والخزرج، لجأ كل بطن إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم، وصاروا موالي لهم، إذا وقع عليهم ضيم لجؤوا إلى من ائتمنوا إليه بالولاء للدفاع عنه، ولما ظهر الإسلام كان من دخل في ولاء عبدالله بن أبي، ومنهم من دخل في ولاء سعد بن معاذ، ومنهم من كان في ولاء عبادة بن الصامت. وكان في مقابل ذلك عليهم العون والنصرة لمن دخلوا في ولائه أو ولائهم والدفاع عنهم، وأن يكونوا بمثابة العون لهم[2].

والعبيد: جمع عبد ومؤنثه أمة.

والعبد: ضد الحر وجمعه عبيد، مثل كلب وكليب وهو جمع عزيز.

---

(١) القاموس المحيط ٤/٤٠٤ مادة «الولي» مختار الصحاح ٧٣٦ مادة و ل ى.

(٢) جواد علي ـ تاريخ ٤/ ٣٦٦-٣٦٧.

والعبودية: الخضوع والذل، والتعبيد: الاستعباد، وهو اتخاذ الشخص عبداً[1] وكان العبيد لا يملكون من حق الحياة قبل الإسلام إلّا الطعام والشراب، وكانوا يباعون ويشرون ويورثون، ويوهبون ويقتلون، ويجري التصرف بهم كما يجري التصرف بالبهائم وكان الاستعباد من الأسر والسلب والشراء والولادة، وكان في المجتمع العربي الكثير من العبيد الذين كانوا يقومون على خدمة ساداتهم، ويمتهنون مهن الخدمة المنزلية أو الرعي، أو أية مهنة يتأفف ويأنف منها الأحرار.

وقد برز العديد من العبيد في الجاهلية ولعل عنترة بن شداد مثال من هؤلاء الذين برزوا بشكل واضح، ومن العبيد بلال بن رباح الذي اشتراه أبو بكر وأعتقه وكان له دوره المعروف في الإسلام.

ويقسم النسابون القبائل العربية بين قبائل العرب الشمالية جميعها قسمين كبيرين:

قسم عدناني مضري: وهو عرب الشمال المنحدرون من عدنان ونزار ومضر.

وقسم قحطاني: ينحدر من قحطان (ولعله يقطان المذكور في التوراة)[2] وقد هاجر هذا القسم من الجنوب من اليمن وحضرموت وعاش بين العرب الشماليين.

ومن يرجع إلى الشعر الجاهلي يجد فيه الفخر باليمنية والقحطانية والعدنانية والمضرية كما يجد في العصبيات مشتعلة بين القبائل على أساس الاشتراك في الدم وفي أب واحد وأم واحدة.

لقد اختلف النسابون في أصل بعض القبائل هل هي عدنانية أو قحطانية..؟ مثل خزاعة وقضاعة وخشعم، ولكنه اختلاف محدود، والرأي الصريح أن هذه

---

(١) مختار الصحاح ص ٤٠٧-٤٠٨، وتهذيب الصحاح ١/٢٢٨ مادة (عبد). والقاموس المحيط ٣/٣٢٢ مادة «العبد».

(٢) الكتاب المقدس ـ سفر التكوين ـ الإصحاح العاشر ص١٦.

القبائل قحطانية ومن الثابت الذي لا شك فيه أن القحطانيين هاجروا بتأثير ظروف اقتصادية وسياسية إلى الشمال وأن هذه الهجرات بدأت منذ أزمان مبكرة، فقد كان المعينيون على ما يظهر يضعون حاميات في طرق قوافلهم التجارية، ولما ضعفت الدولة الحميرية دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنيات، هاجر كثير من الجنوبيين إلى الشمال وخاصة بعد سيل العرم الذي ضرب سد مأرب، ويؤكد ذلك أننا نجد للقبيلة الواحدة فروعاً وشعباً مختلفة في الجزيرة العربية.

فكندة التي هاجرت إلى الشمال، وأسست لها مملكة أو إمارة في شمال نجد لا تزال بقيتها الكبرى تقيم في حضرموت عندما ظهر الإسلام، ونجد في أسماء رجالها نفس الأسماء الجنوبية، مثل شرحبيل بن الحارث، ومعد يكرب أخيه، وكانت عشائر من إياد لا تزال تنزل في شمال نجران بينما يممت عشائر منها حوض الفرات.

أما (الأزد) فقد توزعت قبائلها وعشائرها بين شمال اليمن وعمان، والمدينة حيث أقام الأوس والخزرج، وشمال الجزيرة في الشام حيث نزل بنو غسان «كما يرد تفصيلاً بعد ذلك» وفي هذا دلالة واضحة على أن هجرة الجنوبيين إلى الشمال لا يعتريها الشك، وهاجرت تنوخ[1] إلى البحرين، ثم استقرت في جنوب العراق حيث أسست أهم عشائرها وهي «لخم» دولة المناذرة في الحيرة، ولما نزحت قبائل همدان من حضرموت إلى الجوف اليمني بين مأرب ونجران هاجرت قبيلة طيء إلى الشمال واستقرت في جبلي (أجأ وسلمي) وهاجرت قبائل أخرى إلى شمال الحجاز، وانتشرت في بادية الشام وأهمها (قضاعة) و(بهراء) و(جهينة) و(تلي) التي نزلت مساكن ثمود وجذام، وكلب وعاملة اللائي نزلن حدود فلسطين، وعذرة التي نزلت بالقرب من تيماء ووادي القرى.

---

(١) تجمعات تنوخ تفصيلاً الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ١/١٩٦ فما بعد، الطبري ـ تاريخ ١/٦١٠ فما بعد.

ومن هاجر إلى الجنوب أيضاً (خزاعة) وكانت مستقرة قبيل الإسلام في منطقة مكة و(بجيلة) وكانت تنزل جنوب الطائف.

ويقابل هذا القسم القحطاني اليمني قسم عدناني مضري، ومن أهم قبائله (قريش) في مكة و(ثقيف) في الطائف، و(عبدالقيس) في البحرين، و(بنو حنيفة) في اليمامة و(تميم وجفنة) في صحراء الدهناء، و(بكر وعشائرها) الكثيرة التي تمتد من الشمال الشرقي للجزيرة إلى اليمامة والبحرين، ويرد إليها النسابون (بني حنيفة)، و(بني يحجل) و(شيبان وذهل)، ثم تغلب وكانت تتوغل أكثر من بكر في شمال الجزيرة صوب الشرق، وكان يجاورها (بنو التمر) بينما كانت تنزل (أسد) في شمال نجد، وتنتشر عشائرها إلى تيماء، ومن هذه القبائل العدنانية أيضاً (كنانة) و(هذيل) بالقرب من مكة و(قيس وعيلان) في نجد وأهم قبائلها (هوازن) و(سليم) و(عامر وعشائرها كلاب وعقيل وقشير ومزينة وبنو سعد) و(غطفان وفرعاها الكبيران عبس وذبيان) ومن المفضليات قصيدة حرايقه للأخنس بن شهاب يحصي فيها منازل كثيرة من هذه القبائل (القصيدة رقم ٤١) في المفضليات[1].

٤ ـ الحياة السياسية للقبائل العربية:

هذه القبائل جميعها المتبدية منها والمستقرة في مدن كمكة والحيرة ويثرب وسواهم كانت تتحد في نظمها السياسية وهي نظم قبلية تقوم على أساس القبيلة واشتراك أبنائها في أصل واحد وموطن واحد، وهو موطن متنقل المراعي، وكذلك اشتراكها في تقاليد وعرف تتمسك بهما تمسكاً شديداً، وكان الرباط الذي يوثق الصلة بين أفراد القبيلة هو العصبية، وهي عصبية قبلية ليس فيها شعور واضح بالجنس العربي العام وحقاً تكونت عندهم إمارات في الشمال، ولكنها ظلت تقوم على أساس العصبية القبلية وإن بدا في تضاعيفها شعور ضيئل بالوحدة لا بين القبائل

---

(١) تاريخ الأدب الجاهلي ـ ضيف ص٥٥ فما بعد (بتصرف).

الشمالية فحسب، بل بينها وبين القبائل الجنوبية، فقد كان امراء هذه القبائل من العرب الجنوبيين كما يقول رواة الأخبار والنسابون.

ومن الاتحـادات التي كانت تجمعهم اتحـادات الأحـلاف، ويظن أن هذه الاتحادات لعبت دوراً كبيراً في تكوين القبائل، إذ كانت تضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها.

يقـول البكري: فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة، تنافس الناس في الماء والكلأ، والتماسهم المعاش في المتسع، وغلبة بعضهم بعضاً على البـلاد والمعـاش واستضعـاف القوي الضعيف، انضم الذليل منهم إلى العزيز، وحالف القليل منهم الكثير وتباين القوم في ديارهم ومحالهم، وانتشر كل قوم فيما يليهم (تجمع تنوخ في البحرين) وهي التي تمثل ذلك خير تمثيل في العراق. فقد انضم إليها وتلاشى فيها كثير من القبائل والعشائر العراقية.

وبمجرد أن تدخل القبيلة في حلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق، فهم ينصرونها على أعدائها، ويردون كيدهم عنها في نحورهم، وقد تنفصل بعض قبائل الحلف لتنضم إلى حلف آخـر يحقق مصـالحهـا، ومن ثم كنا نجد دائماً أحلافاً تضعف، وتحـل محلهـا أحلاف أخرى وقبائل قليلة لم تدخل في أحلاف ولذلك سميت (حجرات العرب) لما كان فيها من شجعان يكفونها في الحرب، على أن هذا كثيراً ما كان يؤول بها إلى أن تنهك في المعارك. أما القبائل المتحالفة فكانت تهاب الخشونة فيها[1].

والكلمـة من حلف يحلف حلفاً ويكسر حلفاً. ويقال: لا ومحلوفائه بالمد، ومحلوفه بالله أي أحلف: أقسم. والأحلوفة من الحلف والحلف بالكسر: العهد بين القوم والصداقة والصديق يحلف لصاحبه أن لا يغدر به. جمع أحلاف. والأحلاف

---

(١) تاريخ الأدب ـ ضيف ص٥٧.

في قول زهير: أسد وغطفان لأنهم تحالفوا على التناصر. والأحلاف قوم ثقيف وفي قريش ست قبائل عبدالدار وكعب وجمح وسهم ومخزوم وعدى لأنهم لما أرادت بنو عبدمناف أخذ ما في أيدي عبدالدار من الحجابة والسقاية، وأبت عبدالدار عقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن يتحالفوا، فأخرجت عبدمناف حفنة مملوءة طيباً فوضعتها لأحلافهم وهم أسد وزهرة وتيم عند الكعبة فقسموا أيديهم فيها وتعاقدوا وتعاقدت بنو عبدالدار وحلفاؤهم حلفاً آخر مؤكداً فسموا الأحلاف.. إلخ[1].

وكانوا يقولون عند عقد أحلافهم الدم الدم الهدم الهدم، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلاّ شدا، وطول الليالي إلاّ مدا. مابل بحرصوفه، وأقام رضوى في مكانه، إن كان جبله (رضوى) وإلاّ ذكروا ما يجاورهم من جبال، وربما أوقدوا النار عند تحالفهم، ودعوا الله من ينكث العهد بالحرمان من منافعها.

ويقال: إن قبائل مرة بن عوف الذبيانيين تحالفت عند نار، ودنوا منها حتى محشتهم (أحرقتهم) فسمي حلفهم «المحاشى».

وأكرم الأحلاف حلف الفضول، وفيه تحالفت قبائل قريش على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً إلا نصروه فقاموا معه حتى ترد عنه مظلمته[2]، ومن أسوأ أحلافهم حلف قريش ضد الرسول ﷺ وبني هاشم، عندما تحالفوا بينهم أن لا يكلموا أحداً منهم، ولا يزوجوهم، ولا يتزوجون منهم، ولا يطعمونهم، ولا يأكلون منهم، وكتبوا كتاباً وضعوه في جوف الكعبة، وأكلته (الأرضة) ولم يبق منه إلاّ كلمة «باسمك اللهم»[3].

ومن أحلاف العرب المشهورة حلف (الرباب) وهي خمس قبائل «خبة وثور

---

(١) القاموس المحيط ٣/١٣٣ مادة حلف.

(٢) تاريخ الأدب ـ ضيف ص ٥٨.

(٣) السيرة النبوية ـ ابن كثير ٢/٤٣. سيرة ابن هشام ٢/١٤، الكامل ـ ابن الأثير ٢/٥٨، الطبري ـ تاريخ ٢/٣٣٥.

وعكل وتيم وعدي» وحلف (عبس وعامر) ضد (ذبيان وأحلافها من تيم وأسد) وحلف (الحمر) بين (قريش وخزاعة وكنانة).

وكان لهذه القبائل جميعاً المتحالفة وغير المتحالفة مجلس يضم شيوخ عشائرها وهو ندوتهم التي ينظرون فيها شؤون قبيلتهم، وكان كل فرد يستطيع أن يحضره، وأن يتحدث فيه، ولم يكن له موعد محدد معين، وفي العادة يجتمعون مساء، وكلما حَزَب أمر أو ظهر ما يدعو إلى الاجتماع، فيتناقشون ويتحاورون، وقد يخطبون أو يستمعون إلى بعض ما ينظمه شعراؤهم. وفي أثناء ذلك يدلي سادتهم بحكمهم وتجاربهم في الحياة.

وغالباً ما يتقدم شيوخ القبيلة شيخ كبير مجرب، هو سيدها له حنكة وحكمة وسداد في الرأي، وسعة في الثروة، وهو الذي يقود القبيلة في حروبها ويقسم غنائمها، ويستقبل وفود القبائل الأخرى، ويعقد الصلح والمحالفات، ويقسم الضيافات.

فالسيد في القبيلة إما هو الشخص الألمعي الذي حنكته التجارب، وغالباً ما يرث سيادته عن آبائه حتى يتم له الحسب الرفيع، وليس له أي حقوق سوى توقيره، أما واجباته فكثيرة فلا بد له من الشجاعة والكرم والنجدة وحفظ الجوار وإعانة المعوز والضعيف. ولا بد أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة، وما تدفعه من ديات ولا بد أن يكون حليماً متسامحاً.

وكان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها وعلى رأسها حق أخذ الثأر، وكل فرد يضحي لها بنفسه كما يضحي بماله، فالقبيلة حياته وكيانه.

وكانت القبيلة تعطي من جانبها لأبنائها نفس الحقوق، فهي تنصرهم في الملمات التي تنزل ظالمين ومظلومين، وكل قبيلة مستعدة دائماً للحرب والجلاد

والإغارة على من حولها من البدو والحضر. فكانت الشجاعة مثلها الأعلى والشجعان هم قادتها وروادها، والذين يدفعون عنها عند الشدة، ومن هنا جاءت أيام العرب الكثيرة التي سيرد الحديث عنها عن أيام الأوس والخزرج[1].

---

(١) تاريخ الأدب ـ شوقي ضيف ٦١ـ٦٣ بتصرف.

obeikandl.com